



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 33 (1999), p. 61-77

Muḥammad 'Afīfī

-al 'aṣr-l-fī muslimīn-al raḥḥāla-al 'ind Miṣr Ṣūrat صورة مصر عند الرحالة المسلمين العثماني
'uṭmānī.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711714	<i>La pensée et la pratique pharmacologiques d'Avicenne</i>	Sylvie Ayari
9782724711899	<i>BCAI 40</i>	
9782724711288	<i>Karnak-Nord XI</i>	Colin Hope
9782724711622	<i>BIFAO 126</i>	
9782724711059	<i>Les Inscriptions de visiteurs dans les Tombes thébaines</i>	Chloé Ragazzoli
9782724711455	<i>Les émotions dans l'Égypte Ancienne</i>	Rania Y. Merzeban (éd.), Marie-Lys Arnette (éd.), Dimitri Laboury, Cédric Larcher
9782724711639	<i>AnIsl 60</i>	
9782724711448	<i>Athribis XI</i>	Marcus Müller (éd.)

خاتمة

إن أهم ما يمكن أن نقوله عن نتائج هذا البحث هو صدق المقولة الهامة في تفسير وفهم أدب الرحلات، أنه - أي أدب الرحلات - رحلة عبر المكان، لكنه في الحقيقة - وبقدر متساوى - رحلة عبر الثقافات. فالرحلة الغربية لا يرحل إلى الجنوب فقط، لكنه يرحل إلى ثقافة أخرى ينظر إليها ويوصفها من خلال ثقافته الأصلية. من هنا تأتي «الرؤية» غريبة المزاج. بحيث أن قراءاته للمكان والزمان، تحتاج إلى قراءة تفسيرية أخرى. وعلى العكس من ذلك تأتي رحلات الرحالة الشرقيين «المسلمين»، فهي رحلة - إلى حد كبير - من داخل الثقافة الواحدة، من هنا تأتي النتائج متباينة. فإذا طبقنا ذلك على حالة مصر في العصر العثماني، فإننا سنجد أنفسنا أمام «صورتين» للبلد الواحد، صورة خرجت من ثقافة غربية، وأخرى خرجت من ثقافة شرقية. وفي رأينا أن كلا «الصورتين» في غاية الأهمية لمحاولة - المؤرخ - فهم واستيعاب الصورة الحقيقية لمصر في العصر العثماني.

ومن ناحية أخرى لا تخلو طبيعة «الصورة» سواء غربية أم شرقية من بعض الملاحظات. هناك تنوعات عديدة في ملامح الصورة الغربية «لمصر» حسب طبيعة الرحالة إذا كان «مباشراً» أم مجرد زائراً للاراضي المقدسة أم سائحاً إلى بلاد التاريخ، أو موظفاً رسمياً. كما يحدث ذلك أيضاً بالنسبة للصورة الشرقية. فصورة مصر عند الرحالة المغاربة أكثر إشراقاً وحميمية ربما لبعدها المكان، أو للأتجاه الجغرافي للمغرب العربي نحو المشرق وبوابته الطبيعية مصر. فضلاً عن ارتباط مصر بالطريق إلى مكة والمدينة. أما صورة مصر عند الرحالة الشوام فهي صورة «مألوفة» إلى حد كبير نظراً للقرب الجغرافي والصلات المستمرة، فضلاً عن عدم ارتباط الطريق بين مصر والشام بتأدية فريضة الحج. وحتى بالنسبة للرحالة «الأتراك العثمانيين» فإن صورة مصر لديهم ترتبط إلى حد كبير بالتراث الذي خلفته مصر لعالم الإسلام، إلى جانب أن مصر كولاية لم تكن بالولاية العادية داخل إطار الدولة العثمانية. وأخيراً فإن «صورة» الجهل والتدهور التي نلاحظها في كتابات الرحالة الغربيين، ربما استطاع هذا البحث أن يعيد تقييمها من خلال كتابات الرحالة «المسلمين».

مرتضى الزبيدي

ولد بزبيد ونشأ وتعلم بها. وعلى عادة العلماء المسلمين كان لا بد من الرحلة لزيادة صقله علمياً. ويقال أن الزبيدي أرتحل في طلب العلم حتى وصل إلى الهند، وإلى مكة. ونصحته أساتذته بالرحلة إلى مصر حيث وصلها في عام ١١٦٧ وهناك بدأ يدرس على يد شيوخ عصره، وتلقى عنهم الإجازة. وفي القاهرة حاز الزبيدي من العلم والشهرة ما لم يعرفه معاصريه. حيث عرفه كبار القوم وأغدقوا عليه عطاياهم تشجيعاً له وتقرباً إليه بعد إزدياد شهرته، مثل الأمير إسماعيل كتحدا عزبان، وحتى شيخ العرب همام. وأصبح مقرباً أيضاً من السادة الوفاة. والقصة الشهيرة في هذا الشأن قصته مع محمد بك أبو الذهب. حيث اشترى الأخير نسخة من قاموس الزبيدي الشهير «تاج العروس» بمائة ألف درهم ليضمه إلى خزانة الكتب في جامعته الشهير. إننا هنا لا نقدم ترجمه لحياة الزبيدي. ولكننا نقصد دراسة «صورة» مصر لديه، حيث رحل إليها طلباً للعلم وللشهرة. وهناك حاز بها شهرة كبرى. إلى الحد الذي دفع تلميذه الشهير عبد الرحمن الجبرتي إلى وصف لحظة وصول الزبيدي إلى مصر بأنها لحظة حاسمة في تاريخ عصره. وكانت مصر بالنسبة للزبيدي نقطة إلتقاء هامة للعديد من التلاميذ والعلماء الذين يفدون إليها من شتى أنحاء العالم الإسلامي. وذاعت في الأرجاء شهرته حتى كاتبه سلاطين الدولة العثمانية، وأمراء الحجاز واليمن والهند والشام والعراق وشمال أفريقيا وبلاد السودان إلى أن توفي في عام ١٢٠٥هـ^{٣٦}.

^{٣٦} عن الزبيدي بصفة عامة أنظر ترجمة الجبرتي له في: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ج ٢، ص ١٠٣، ١١٤. وايضاً محمد سيد كيلاني: الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، القاهرة د.ت ص ٢٦٨-٢٩٢. ولتقييم الأثر

الفكري الذي خلفه الزبيدي في مصر أنظر بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية في مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، مراجعة رؤوف عباس، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٠١، ١٠٣.

ذلك. من هنا حاولنا أن نسد هذا العجز بدراسة نموذج لعالم يمني رحل إلى مصر وأستقر بها حتى وفاته. حيث حاز بها شهرة واسعة حتى أصبح «أشهر» عالم إسلامي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

الكيوانى الدمشقى

هو الشاعر أحمد بك بن حسين الكيوانى الحنفى الدمشقى، المعروف بالكيوانى الدمشقى، المتوفى فى عام ١٧٥٩. وبنو كيوان هم طائفة من الناس بدمشق. خرج منها أمراء وأعيان وأجناد. ولا تتوافر لدينا معلومات كثيرة عنه. فنحن لا نعرف سنة ميلاده، ولا حتى سنة رحيله إلى مصر. على أية حال رحل الكيوانى إلى مصر وأستمر بها عدة سنوات. حيث درس وألتقى مع عملائها. ويصف الكيوانى المجالس العلمية التى حضرها فى مصر بأنه كان «يحضر فى مجلس زبدة الفقهاء»^{٣٣}.

كما وصف الشاعر حياته وشوقه إلى مصر بعد رحيله عنها بقوله:

سقى الله فى مصر السعيدة منزلاً	قضى الله فيه بإجتماع ذوى اللب
محل لمعسول السجايا لقاءه	أحب إلى الظامئ من الخصر العذب
وإخوان صدق مستقيم ودادهم	وشر الاخلاء المقوم بالعتب
نعمننا به حيناً من الدهر نحتسى	سلافة آداب تجم على الشرب ^{٣٤}

على أية حال يصف بعض مؤرخى الأدب العربى فى العصر العثمانى أثر الرحلة إلى مصر على صقل الكيوانى وإتساع شهرته قائلاً «إتسعت شهرة الشاعر وغدا ذو مكانة مرموقة فى الأدب ببلاد الشام، بعد عودته من مصر وقد إستكمل ثقافته الأدبية»^{٣٥}.

^{٣٣} عمر موسى باشا: تاريخ الأدب العربى فى العصر العثمانى،^{٣٤} نفسه ص ٥١٠.

دمشق ١٩٨٩، ص ٥٠٨.^{٣٥} نفسه ص ٥١١.

ومهما يكن من أمر «المبالغة» التي نصادفها «أحياناً» في كتابات الرحالة، فإن رحالتنا هذا من أئمة عصره في بلاده - فضلاً عن أن المبالغة في حد ذاتها توضح تحسن الأحوال في مصر مقارنة بغيرها.

كما يعقد الورثياني مقارنة من نوع آخر بين مصر وبلاد المغرب، حيث يشير إلى مدى الثراء والأهمية الاقتصادية لمصر بالمقارنة ببلاد المغرب «من عجائب ذلك أن أرزاقها - مصر - أكثر منها. فإن أهل وطننا، بل سائر المغاربة يعلمون أنهم ليسوا من أهل الدنيا، بل أموات بالنسبة إلى ما رأوا»^{٣١}. ويلخص الورثياني صورة مصر - مثل معظم الرحالة المسلمين - في عبارة واحدة قائلاً «فوطن مصر ليس كغيره»^{٣٢}.

الرحلة العلمية إلى مصر وإلى الشهيرة

إستكمالاً للنقطة السابقة حول «صورة» و «مكانة» مصر عند الرحالة المسلمين، سنحاول هنا معالجة ظاهرة هامة كانت في الحقيقة «إستمراراً» لعصور سابقة، ألا وهي رحيل كبار العلماء المسلمين وإستقرارهم في مصر إستقراراً دائماً أو مؤقتاً، طلباً للعلم وأيضاً للشهرة، حيث أصبحت مصر «كعبة» العلماء. ولا يحوز العالم صيتاً ولا شهرة إلا في مصر. لكن المشكلة التي تواجهنا أن معظم هؤلاء لم يكتبوا لنا «رحلة» تساعدنا على إعادة رسم «صورة» مصر لديهم. من هنا كانت محاولتنا عدم إهمال هؤلاء، ومحاولة دراستهم من خلال كتابات بعض من «ترجم» لهم. وسنختار هنا نموذجين، أحدهما شامى والشام هي المنطقة الأقرب إلى مصر بالنسبة للعالم الإسلامى، بحكم توجه مصر الجغرافى نحو المشرق. أما عن المغرب فقد تناولنا من قبل بالدراسة بعض الرحالة المغاربة إلى مصر، ولاحظنا كثرة هؤلاء، بحكم توجه المغرب الجغرافى نحو المشرق، الذى تعتبر مصر بوابته. والنموذج الثانى من اليمن، دفعنا إلى ذلك عدم توفر كتابات عن رحلات ورحالة يمينيين لدينا. وربما يتاح لنا فيما بعد الإطلاع على

«هي أم البلاد وقرارة فرعون ذو الأوتاد. تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وأماكنها». عن رحلة ابن بطوطة انظر شوقى ضيف: الرحلات، القاهرة ط ٤ د.ت ص ٩٥-١٢٢. وأيضاً زكى حسن: المرجع السابق ص ١٤٠-١٤٢.

^{٣١} الورثياني: ص ٥٥٥ وقارن ذلك بما قاله الرحالة المغربى ابنى عبدالله القيسى فى النصف الأول من القرن السابع عشر عن مصر ونظرة المغاربة إلى مصر «فنسى كل غريب وطنه وود أن لو فيها يقضى عمره وزمنه» ص ٤٦.

^{٣٢} نفسه: المصدر السابق ص ٣٠٣. قارن ذلك مع ما يقوله الرحالة الشهير ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر عن القاهرة

الحسين بن محمد الورثيلاني

يعتبر الحسين بن محمد الورثيلاني من أهم الرحالة المغاربة الذين وفدوا إلى مصر بعد العياشي. وينتمي رحالنا إلى قبيلة ورثيلان قرب بجاية. درس المذهب المالكي وتفقه فيه، حتى أصبح من أهم رموزه في بلاد المغرب. وله العديد من الكتابات الهامة في التصوف والأدب. قام بالرحلة إلى بلاد مصر والحجاز، ووضع فيها رحلة تعتبر من أهم المصادر التاريخية العربية لهذا العصر.

وأهم ما يستلفت الانتباه في رحلة الورثيلاني بروز عامل «الاستمرارية» في تأكيد «صورة» مصر في العالم الإسلامي. إذ يذكر في بعض الأحيان مشاهدات وتعليقات العياشي، ثم يؤكد عليها. فعلى سبيل المثال يشارك الورثيلاني العياشي في وصف نهر النيل بأنه «أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة». كما يذكر مقولات ابن خلدون والعياشي، ثم يؤكد ذلك بمقولات من عنده. ويعلق على إستمرارية مكانة مصر قائلاً «وأخبار مصر وما فيها من العجائب، وجميع ما يحتاج إليه من أحوالهم مستوفى في كتب تواريخها فلا نطيل بكثير منه»^{٢٨}. كما يذكر أيضاً «وبالجمل فامر مصر وحالها من يوم عمارتها إلى الآن أمر غريب وعجائبها في العلوم والمعارف والعوارف والولاية لا تحصى، وغرائبها كادت أن لا تستقصى فمن أختبرها وعان أحوالها حصل له اليقين الخاص والعبرة العظيمة»^{٢٩}.

ويعقد الورثيلاني مقارنات في غاية الأهمية بين مصر وبلاد المغرب توضح مدى صورة ومكانة مصر عند المغاربة إذ يعقد مقارنة بين إهتمام أهل مصر بعمارة المساجد وترميمها وضعف ذلك في بلاد المغرب «أما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجداً عظيماً قد أحدث بل ولا مهتماً قد جدد أو واهياً قد أصلح. بل لو سقط شئ من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنياً برخام أن يعاد بأجر وجص. وإن كان مجصصاً أن يعاد بطين. بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي»^{٣٠}.

حاضرة الدنيا وستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام» أحمد رمضان: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

^{٣٠} نفسه ص ٢٦٦.

^{٢٨} الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بالرحلة الورثيلانية، ط٢، بيروت ١٩٧٤، ص ٢٧٤.

^{٢٩} نفسه ص ٣١٦ وقارن ذلك مع ما قاله ابن خلدون (الرحلة المغاربي) في وصف القاهرة في القرن الرابع عشر «رايت

أبو سالم العياشي

يعتبر أبو سالم العياشي من أهم وأشهر الرحالة المغاربة في القرن السابع عشر، حيث قام برحلته الشهيرة إلى المشرق، هذه الرحلة التي سميت بـ «الرحلة الكبرى» أو «ماء الموائد» أو «الرحلة العياشية». وستصبح هذه الرحلة مرجعاً بعد ذلك للكثير من الرحالة المغاربة الذين يرتادون المشرق. وكأغلب الرحالة المغاربة كان الهدف الرئيسي لرحلة العياشي الحج إلى الحرمين الشريفين. ولكن لم تخلو رحلة العياشي من أهداف ثقافية من لقاء علماء المشرق الإسلامي، فضلاً عن جلب المخطوطات المشرقية إلى المغرب. على أية حال فإننا نجد عند العياشي «صورة» لمدي الخصب والنماء الذي تتمتع به مصر. هذه الصورة التي تتكرر باستمرار عند معظم الرحالة المغاربة. إذ يصف مصر قائلاً «لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصباً مع إتصال العمارة نحو الشهر من هذه البلد»^{٢٤}. كما يصور العياشي مدى أهمية مصر والدور الذي تلعبه في إستضافة قافلة الحج المغربي. ويؤكد على تفضيل المغاربة الانضمام إلى ركب الحج المصري، نظراً لقدرته على تأمين الطرق الصحراوية من هجمات العربان فضلاً عن الرخاء الاقتصادي «النسبي» في هذا الركب^{٢٥}.

وعلى عادة الرحالة والجغرافيين وحتى المؤرخين المسلمين الأوائل يصف العياشي نهر النيل بأنه «أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة، وأثر بركته مرآة للعيان في مائه وترايه وقراه ومدايينه»^{٢٦}.

ومن ناحية أخرى تعتبر رحلة العياشي مصدراً في غاية الأهمية للحياة الثقافية في مصر في القرن السابع عشر. إذ يصور «مكانة» مصر في العالم الإسلامي. حيث يبرز مدى أهمية الدور الثقافي لعلماء الأزهر، وصدى فتواهم وإنتشارها في العالم الإسلامي. ويصف الجامع الأزهر بأنه «معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار. فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها حاشا المساجد الثلاثة»^{٢٧}.

^{٢٤} العياشي: الرحلة الكبرى، ماء الموائد، طبع حجرى فاس.

^{٢٦} نفسه ص ١٢١.

^{٢٧} نفسه ص ١٢٦.

^{٢٥} نفسه ص ١٥٧.

إن استرجاع أشعار السابقين حول «مكانة» و «صورة» مصر يعتبر في حد ذاته دليلاً على عامل الاستمرارية في ذلك الشأن. ولا أدل على ذلك من أن النابلسي ينظم أيضاً في مكانة مصر قائلاً:

لم نجد مثل مصر ذات الفنون
حيث فيها سقاية الخبزون^{٢١}

ولا أدل على مكانة مصر الثقافية آنذاك من حادثتين يرويهما النابلسي. الأولى عند زيارته لمجلس الشيخ زين العابدين البكري. حيث عرض عليهم البكري كتاباً في التاريخ، يذكر النابلسي أنه «كتاباً كبيراً جداً في مجلد واحد اسمه قانون الدنيا. يذكر فيه إبتداء خلق الدنيا بالتفصيل، ثم يذكر الأقاليم السبعة وما خرج عنها. ويذكر البلدان جميعها وما أشتملت عليه من الاماكن والأنهار والبحار ومن خرج منها من العلماء والشعراء وغيرهم، ويترجمهم بذكر مصنفاتهم وفضائلهم ووفياتهم وموالدهم إلى غير ذلك» ويعلق النابلسي على ذلك قائلاً أن أحد باشوات مصر قد أعجب بهذا الكتاب بشدة، وأنه طلب من البكري إستنساخ نسخة من هذا الكتاب، فوافق البكري. وعلى هذا فليس للكتاب إلا أصل يحتفظ به البكري، ونسخة في «بلاد الروم»^{٢٢}.

أما الحادثة الثانية فهي في غاية الأهمية لأنها توضح «صورة» و «مكانة» مصر في قلب أفريقيا السوداء. حيث دار جدل حاد في ذلك الزمان حول الدخان، حرام أم حلال. إذ يروى النابلسي قصة الشيخ سيدي أحمد بابا المالكي من تنبكتو، الذي رأى أن الدخان حلال. لكن بعض الناس في بلاده أفضوا إليه بأن الشيخ إبراهيم اللقاني المصري المالكي، قد افتى بتحريم الدخان. والشيخ اللقاني هو علامة عصره. وهنا أراد الرجل أن يضيف الشرعية على فتواه، وأن يقنع اللقاني، حتى يكتسب، أحمد بابا، مصداقية أمام أهله في تنبكتو. وبصرف النظر عن الجدل الذي دار حول الدخان بين اللقاني وأحمد بابا، فإن هذه الحادثة توضح مدى «صورة» و «مكانة» مصر في العالم الإسلامي، حتى في قلب إفريقيا، وأيضاً بالنسبة للمذهب المالكي السائد في بلاد المغرب وأفريقيا الإسلامية^{٢٣}.

^{٢١} نفسه ص ٤٢٩.

^{٢٢} نفسه ص ٢٥٣ ، ٢٥٤.

ومثله مثل الكثيرين من الرحالة المسلمين ولاسيما المغاربة، كان السر وراء قيامه بالرحلة هو القيام بفريضة الحج^{١٥}. وتكمن أهمية رحلة أبي عبدالله القيسي ليس في طبيعة الوصف الدقيق الذي يقدمه لمصر مثلما قدم الرحالين السابق الحديث عنهما، ولكن في نظرته إلى مصر، لاسيما القاهرة. هذه الصورة التي تذكرنا إلى حد كبير بالصورة التي يقدمها الرحالة المسلمين لمصر في عصورها السابقة. مما يوضح عامل «الاستمرارية» في طبيعة «الصورة» و«المكانة».

إذ يصف القاهرة قائلاً «يا لها من قاهرة ما أحسنها وأبدع جمالها وأوصافها. أو في البلاد طهرة، وأزكاها فطرة، وأفسحها رقعة». كما يقدم لنا أيضاً مدى «مكانة» مصر بالنسبة للمغاربة، حيث كانت تمثل نقطة هامة في قافلة الحج المغربي «دهليز البلد الحرام وقبالة الباب والمقام»^{١٦}.

ويحتل نهر النيل أهمية كبرى في صورة مصر عند الرحالة المسلمين دوماً. حيث يمثل معنى الاستقرار والحضارة «هذا البحر أعجب البحور شمائل وأعذبها وارداً، وأطيبها نشراً». ثم يصور النيل في عبارة ذات مغزى خاص «فسبحان من خص به مصر»^{١٧}. ويلعب الأزهر دوراً هاماً في تدعيم «صورة» مصر و «مكانتها» الثقافية والدينية في العالم الإسلامي «جامع الأزهار المشرقة، والأنوار الشهيرة الذكر في الحواضر والأمصار، لا مسجد يعدله في قطر». على أية حال يلخص القيسي صورة مصر لديه في عبارة بليغة توضح مكانة مصر لدى من يزورها «فنسى كل غريب وطنه وود أن لو فيها يقضى عمره وزمنه»^{١٨}.

^{١٥} عن دور الحج في تشجيع الرحلة والرحالة المسلمين أنظر: أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، جدة، د.ت. وايضا: زكى حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت ١٩٨١.

^{١٦} أبي عبدالله القيسي: المصدر السابق، ص ٤٣.

^{١٧} نفسه ص ٤١. ويصف الهروي السائح في مطلع القرن الثالث عشر النيل قائلاً «وبالجمله فإن ديار مصر وتينها من عجائب الدنيا» زكى حسن، المرجع السابق، ص ٩٣.

^{١٨} أبي عبدالله القيسي: المصدر السابق ص ٤٦.

ومن ناحية أخرى سنلتقط من وصف مصطفى على للقاهرة فقرة بسيطة للمقارنة بين هذا الوصف والنظرة الاستشراقية للتاريخ. حيث دأبت معظم الدراسات التي تناولت الحملة الفرنسية على مصر على التهويل من شأن بعض الإجراءات الإدارية «البسيطة» التي اتخذتها الحملة بشأن النظافة في مصر. وكان القاهريون لم يعرفوا ذلك من قبل. إذ يسجل مصطفى على إعجابه بنظافة الشوارع في الأحياء التجارية في القاهرة. حيث يتم كنس ورش الشوارع في مقابل مبلغ بسيط يشارك فيه أصحاب الحوانيت. كما يتم رفع القمامة والنفايات ونقلها بعيداً على ظهر الحمير^{١٣}. إن الوصف السابق الذي يقدمه مصطفى على يجعلنا نتساءل هل نسي أو أهمل المصريون أعمال النظافة للطرق مع مجيء الحملة الفرنسية!! إن المشكلة هنا «دور الدولة» ومفهوم «الإدارة». ففي العصر العثماني كانت التنظيمات الأهلية طوائف الحرف والتجار هي المسؤولة عن ذلك. أما بالنسبة للحملة الفرنسية فهنا دور «الدولة والإدارة». من هنا التضخيم من شأن «الإجراءات الإدارية» وعدم الاهتمام بالدور الذي تلعبه «طوائف الحرف والتجار».

أبي عبد الله القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح «المغربى»

نعود مرة أخرى إلى المغرب العربي حيث ينتمى رحالنا هذه المرة. ويعود زمن رحلته إلى عامي ١٦٣٠-١٦٣٣. ويدخل أبو عبد الله القيسي في زمرة الرحالة «غير المشهورين». فكما أوضحنا من قبل ستضم عينتنا رحالة مشهورين وغير مشهورين، حتى تكتمل إلى حد ما أبعاد «صورة» مصر لدينا في عيون هؤلاء الرحالة. ويكتفى محقق هذه الرحلة بذكر أن المؤلف «عربي قيسي الأصل، صوفى النزعة ولا نعلم عنه أشياء كثيرة»^{١٤}.

^{١٤} أبي عبد الله القيسي الشهير بالسراج الملحق بابن مليح: أنس الساري والساربان من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، ١٦٣٠-١٦٣٣، تحقيق محمد الفاسي، فاس ١٩٦٨، المقدمة.

^{١٣} وأنظر ص ١٠ في ذكر الأحاديث والآيات حول مصر. *Ibid.*, p. 13.

مصطفى علي «العثماني» ١٥٩٩

إذ كنا قد تناولنا سابقاً رحالة أندلسي الأصل مغاربي ذو ثقافة عربية وأيضاً أوروبية، ينتمي إلى بدايات القرن السادس عشر، فاننا هنا سنميل إلى أقصى الطرف الآخر. إذ يرجع رحالنا هذه المرة إلى عالم أواخر القرن السادس عشر. كما يمثل الطرف الآخر الصاعد في عالم الإسلام بعد غروب الأندلس، ونقصد به الدولة العثمانية. ويعتبر مصطفى علي من أشهر العلماء الموسوعيين العثمانيين. فله العديد من الكتابات في التاريخ والشعر فضلاً عن ميادين أخرى. كما زار مصر مرتين، الأولى في عام ١٥٦٨، والثانية في عام ١٥٩٩.^{١٢}

وجاءت الزيارة الأولى له من جراء عمله ككاتب في معية لالا مصطفى باشا الذي عين سرداراً على اليمن. حيث قام مصطفى علي بزيارة سريعة للقاهرة وهو في طريقه إلى اليمن. لكن هذه الزيارة تركت لديه العديد من الذكريات السعيدة. إذ أدرك مدى الأهمية «الثقافية» لمصر. لذلك سعى لدى السلطان لتعيينه دفترداراً لمصر. ويبرر مصطفى علي ذلك بأن القاهرة ستصبح له بمثابة المكان الملائم والأمثل لإستكمال مشروع كتابه عن تاريخ العالم. حيث تتوافر في القاهرة المصادر اللازمة لذلك. لكن حلمه هذا سيتأخر طويلاً.

فلم يعد مصطفى علي إلى القاهرة إلا في عام ١٥٩٩. حيث زار القاهرة لمدة قصيرة لا تتجاوز الشهرين. إذ عين أميناً لميناء جدة. وهي الفترة التي سيبدأ في نهايتها كتابة «وصف القاهرة». وحتى بعد رحليه إلى جدة، لا ينسى مصطفى علي حلمه القديم في الاستقرار في مصر. إذ يطلب من السلطان تعيينه حاكماً على مصر. هذا الحلم الذي لن يتحقق.

إن ما يهمنا هنا ليس الوصف التفصيلي الدقيق الذي قدمه للقاهرة، والذي يحمل أوجه نقد وأوجه إستحسان، ولكن ما يهمنا هنا هو «صورة» مصر و «مكانتها» لديه. فكما مر بنا كان حلمه الدائم الاستقرار أطول فترة ممكنة في القاهرة لإستكمال مشروعه الكبير في كتابة تاريخ العالم. وعلى مدار حياته لا ينسى قط حلمه السابق. إذ يطلب دائماً الوظيفة في مصر سواء كان دفترداراً أو والياً عليها. مما يوضح لنا «مكانة» مصر ك «ولاية» وك «مركزاً ثقافياً» ذو تراثاً بعيداً.

^{١٢} Mustafa 'Ali's Description of Cairo, 1599, translation, Notes by Andreas Tietze, Vienna 1975, p. 7, 8.

المسيحية. وعرف بعد ذلك بإسم ليو الإفريقي. ولا تتوافر الكثير من المعلومات حول حياته في إيطاليا، حيث كتب هناك رحلته «وصف أفريقيا».

ولا يهمننا هنا الوصف الدقيق الذي قدمه ليو لمصر وأهم مدنها، ونظم الحكم فيها في نهايات العصر المملوكي وبداية العثماني، ولكن يهمننا «صورة» مصر لديه. لاسيما وأنه جمع بين الثقافة الشرقية والغربية. ومثله مثل معظم الرحالة المسلمين والغربيين يبدأ الوزان وصفه لمصر متحدثاً ومشيداً بعظمة تاريخها القديم «ظلت مملكة مصر لمدة طويلة تحت حكم المصريين أي الفراعنة الذين كانوا ملوكاً عظاماً، وأقوياء جداً، كما تشهد على ذلك آثارهم من أبنية بديعة وعجيبة. ولا يزال التاريخ يتكلم عنهم»⁹. إن هذه النقطة في غاية الأهمية لأنها ستضفي على مصر سحر وعبق التاريخ في كتابات الرحالة الشرقيين والغربيين.

وسترتبط صورة مصر إلى حد كبير في كتابات الرحالة بوصف القاهرة وبيان مكانتها وأهميتها. من هنا يصف الوزان القاهرة قائلاً «من المشهور أن القاهرة هي إحدى أكبر مدن العالم ومن أكثرها رونقاً وبهاء»¹⁰. وسنلاحظ بعد ذلك مدى «الاستمرارية» في وصف القاهرة وبيان مدى أهميتها لدى الرحالة التاليين. كما سيحظى النيل بأهمية خاصة لدى معظم الرحالة الشرقيين، وهو تقليد يمتد عند رحالة العصور السابقة على العصر العثماني، لاسيما مع إدراك الجميع أن النيل هو أصل الحضارة في مصر، وسر نماءها الاقتصادي. يقول ليو «لو سردنا كل ما قاله الجغرافيون عن النيل، لأصيب كل الناس بالدهشة والتعجب، ومن المحتمل ألا يصدقوا ذلك»¹¹.

وفي رأينا أن كتابات ليو الإفريقي في غاية الأهمية بالنسبة لما تقدمه من وصف تفصيلي لمصر وأشهر مدنها في الدلتا والصعيد، فضلاً عن نظم الحكم فيها. لكنها لاتخدم «كثيراً» النقطة محل الدراسة «صورة» مصر. ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الفترة الانتقالية التي عاشها ليو في مصر، ونقصد بها الانتقال من العصر المملوكي إلى العصر العثماني. ايضاً الحرص البالغ له على تقديم وصف «جغرافي» تفصيلي. على أية حال هو يعطينا نقطة بداية هامة حول أهمية القاهرة في ذلك الوقت كاحدى كبرى المدن العالمية.

⁹ الحسن بن محمد الوزان الزياتي (ليو الإفريقي): وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض ١٣٩٩هـ، ص ٦٣٣.

¹⁰ نفسه ص ٥٧٨.

¹¹ نفسه ص ٦٣٣.

الحديثه على يد محمد على. وهكذا سقط العصر العثماني بين «مجدين». إذ يشيد البعض بوضع مصر فى عهد سلاطين المماليك كقاعدة لإمبراطورية كبرى وإنتهاء ذلك و«نهاية التاريخ» بزوال دولة المماليك و«الاحتلال» العثماني و«التدهور» الذى لحق بمصر. إذ يلخص رأيه فى الفترة العثمانية قائلاً «أصبحت مصر نيابة تابعة للعثمانيين بعد أن كانت دولة كبرى فى الشرق العربى، وسلطانها أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة. مما ترتب عليه تدهورها إلى الحضيض. حقاً لقد مرت مصر فى تاريخها الطويل بفتترات تدهور إلا أن التدهور الذى وقع لها على أيدي العثمانيين لم يكن له مثل، بحيث مس كل كيانه، بما فيه الكيان النفسى. ولا تزال تعاني من آثاره إلى الوقت الحاضر»^٦. ويتناسى أصحاب هذا الاتجاه ما وصلت إليه مصر عند نهاية هذا العصر - عصر سلاطين المماليك - من تعقيدات داخلية وخارجية. حيث يرى اتجاه آخر أن مصر فى نهاية هذا العصر كانت تعاني من العديد من المشاكل ومن تصاعد «التدهور» فى أحوالها^٧.

فكرة البحث

من هنا تطمح دراستنا إلى معالجة «صورة» مصر عند الرحالة المسلمين لتأكيد مدى «الاستمرارية» أو انقطاعها فى «مكانة» و«دور» مصر فى المحيط الذى قدر لها أن تتعايش فيه وتكيف «دورها» التاريخى معه. وبيان النظرة «الشرقية» لصورة مصر إزاء النظرة «الغربية» لها.

^٦ عبد المنعم ماجد: طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر، القاهرة ١٩٧٨، ص ٢٢٢.

^٧ «هكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل حتى إذا ما دهمتها جيوش آل عثمان الأتراك تسقط بعد معركةين فاصلتين» أنظر: قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٣، ص ١٧٧.

تأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها. ولو قارنت بين حالتها في ذلك العهد وحالتها من قبل لرأيت أن البلاد قد رجعت القهقري خطوات واسعة^٣. ومن يراجع المصادر التي أعتمد عليها الرافي عند معالجته لهذا العصر سيدرك مدى التأثير الشديد لكتابات الرحالة الغربيين وكتاب وصف مصر على كتاباته.

ولا تخلو الكتابات الأكاديمية المصرية الأولى من التأثير الشديد بكتابات الرحالة الغربيين، مع تحفظنا الشديد عن ذكر الأمثلة لهؤلاء الرواد. وقد دفعهم إلى ذلك صعوبة الوصول إلى مصادر العصر العثماني، كما أن الاعتماد على كتابات الرحالة الغربيين يخدم ترسيخ الصورة القائمة لهذا العصر، ويعلى من شأن المدرسة «الملكية» في كتابة تاريخ مصر وتمجيد أسرة محمد علي، فضلاً عن صورة القرن التاسع عشر كعصر التحديث ليس في مصر فحسب بل في الدولة العثمانية، بل وفي الكثير من البلدان الشرقية. وربما لم يخرج عن ذلك إلا شفيق غربال عند نشره لأجوبة حسين أفندي الروزنامجي، وإن تأثر غربال قبل ذلك بشدة بكتابات الرحالة والقناصل الأوروبيين. كما تعتبر مقدمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتاب تلميذه عبد الرحيم عبد الرحمن عن «الريف المصري في القرن الثامن عشر» وتلميذته ليلي عبد اللطيف عن «الإدارة في مصر في العصر العثماني»^٤ خير شهادة عن جيل الرواد الذي اعتمد في نظريته إلى العصر العثماني على «مصادر غربية» أدرك بعد ذلك مدى الأيديولوجيا بها وعلو النظرة الغربية فيها. من هنا كان دفعه بتلاميذه بإعادة قراءة التاريخ العثماني من مصادره الأولية منعطفاً هاماً للمدرسة التاريخية المصرية.

من ناحية أخرى وصم الكثيرون العصر العثماني بالتدهور دون مراجعة دقيقة لمفهوم «التدهور»^٥ وأبعاده المختلفة ومدى إنطباق ذلك على العصر العثماني. وعقد هؤلاء مقارنة من وجهة نظر «قومية» بين ذروة المجد في عصر سلاطين المماليك وبناء مصر

^٣ عبد الرحمن الرافي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، القاهرة، ١٩٨١، ص ٥٤. وعن مدى تأثير كتابات الرحالة الأجانب على نظرة جيل الرواد إلى العصر العثماني «إذا كان العصر العثماني من أغمض عصور التاريخ المصري وأشدها ظلاماً فإن هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين، تعتبر أهم مراجعنا في دراسته وتصويره». محمد عبدالله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ط ٢، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٣٣.

^٤ ليلي عبد اللطيف: الإدارة في مصر في العصر العثماني، القاهرة ١٩٧٨، المقدمة. يرى البعض «أنه لا يجوز في إطار الدراسة العلمية استخدام هذه الكلمة - التدهور - إلا لوصف إحدى حالتين: الأولى هي إنخفاض شديد في السكان، والثانية هي انخفاض شديد في الثروة... وإذ نظرنا إلى الفترة العثمانية فإننا لا نجد وثائق أو بيانات تدل على وجود مثل تلك الأحداث الضخمة». أنظر تعقيب جيلان آرم على الدراسات التاريخية الخاصة بمصر في العصر العثماني، في محمد عفيفي، إشراف، المدرسة التاريخية المصرية، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٧٠.

^٥ عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري في القرن الثامن عشر، ط ٢، القاهرة ١٩٨٦، المقدمة وأيضاً:

عبد الرحمن الرافي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، القاهرة، ١٩٨١، ص ٥٤. وعن مدى تأثير كتابات الرحالة الأجانب على نظرة جيل الرواد إلى العصر العثماني «إذا كان العصر العثماني من أغمض عصور التاريخ المصري وأشدها ظلاماً فإن هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين، تعتبر أهم مراجعنا في دراسته وتصويره». محمد عبدالله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ط ٢، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٣٣.

الغربيين والذي تم ترجمته أخيراً إلى العربية، لبيان مدى الأيديولوجيا في تصوير «تدهور» أوضاع مصر تحت الحكم العثماني. حيث زار جون أنتيس «الرحالة الإنجليزي» مصر في الفترة من ١٧٧٠-١٧٨٢. ويصف الرحالة سكان مصر في أواخر القرن الثامن عشر بأنهم يعيشون في مرحلة الانحطاط والتردى، وشتان بين حالهم وحال أجدادهم الفراعنة. حيث يجرى هذه المقارنة قائلاً: «إن المصريين القدماء كانوا علماء حقيقيين في الفلك. أما معاصروهم فهم علماء في التنجيم والدجل». وقد فسر أسباب «انحطاطهم الحضاري» إلى هذه الدرجة التي تدعو للرتاء بأن نظام الحكم القائم على الطغيان الشرقي حرم الناس من حقوقهم المشروعة في التعبير عن أنفسهم، وتذوق الفنون الجميلة وحرمانهم من إشباع غريزة المعرفة وإعاقتهم عن تحسين أحوالهم الاقتصادية. ويرى أن ذلك يرجع إلى «سوء تنظيم البلاد، حتى أن المعدمين منهم راضون وقانونون بحياتهم التعسة المزرية، بالرغم من أنهم يعيشون في قلب فردوس الأرض». ويبلغ به اليأس حد القول بأن المصريين غير مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم. والحل من وجهة نظره وقوع مصر في حوزة دولة كبرى متحضرة وقوية تعمل على إصلاح أحوالها وتحديثها. أو أن يظهر من بين المصريين بطل قومي متسلح بسلطات مطلقة ليمزق الاطمار البالية، وينفض عنها التراب، ويقوم بحركة إصلاح جذرية على نحو ما فعل بطرس الأكبر بالروس^٢. إنه هنا يعبر خير تعبير عن نظرة الاستشراق، فإما الاستعمار ورسالة «الرجل الأبيض» أو «البطل» ونظرية «السوبرمان» «المخلص» «المستبد العادل». وقد وقع العديد من المؤرخين «الشرقيين» تحت تأثير كتابات «الرحالة الغربيين» كمصدر أساسي وأحياناً «أحادي» إلى جانب كتابات الجبرتي، عند التطرق إلى العصر العثماني. دفعهم إلى ذلك النظر إلى القرن التاسع عشر على أنه عصر «التحديث» وبناء الدولة «الحديثة» «القومية». أو لصعوبة الوصول إلى «مصادر» العصر العثماني. وسنذكر هنا بعض الأمثلة لهذا الاتجاه التقليدي.

تمثل كتابات عبد الرحمن الرافعي خير تمثيل لهذا الاتجاه، لاسيما مع الأخذ في الاعتبار التأثير الشديد لكتاباته على «المدرسة القومية» في كتابة التاريخ المصري. يقول الرافعي «كان لنظام الحكم الذي رزخت تحته البلاد من عهد الفتح العثماني أسوأ الأثر في حالاتها السياسية والعمرانية. فلا غرو أن نظام الحكم بعد الفتح العثماني أدى إلى

^٢ جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم (١٧٨٢-١٧٧٠)، ترجمة وتعليق سيد الناصري، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٣ ، ٢٤.

صورة مصر عند الرحالة المسلمين في العصر العثماني

مقدمة

درج معظم المؤرخون إلى وقت قريب عند التطرق إلى العصر العثماني إلى وصفه بالتدهور والانحدار. وقد يرجع ذلك الأمر إلى العديد من العوامل، التي ليس هنا مجال التطرق إليها. إذ تسعى هذه الدراسة - فقط - إلى إلقاء الضوء على أحد أهم هذه العوامل - في رأينا - وهو الانسياق إلى النظر إلى الفترة العثمانية في تاريخ مصر من منظور «غربي». ونقصد بذلك على وجه الدقة، أثر كتابات الرحالة «الغربيين» على كتابات «المستشرقين»، وحتى على بعض أتباع المدرسة الجديدة «ما بعد الاستشراق»، كما تأثر بعض المؤرخين الشرقيين أنفسهم بذلك الأمر. وعلى الرغم أن الصورة التي رسمها الرحالة الغربيون لمصر في العصر العثماني أصبحت الآن واضحة لدى معظم المؤرخين وحتى المثقفين¹، ومع أن موضوع دراستنا هو «الرحالة المسلمين» فأننا سنشير فقط إلى آخر هذه «النماذج» من كتابات الرحالة

¹ وأيضاً ثروت عكاشة: مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء، جزآن، القاهرة ١٩٨٤.

وليهام محمد على ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين، القاهرة ١٩٩١.

ولبيان التناقض الشديد في كتابات الرحالة «سافاري الذي أحب كل شيء في مصر. وفولني الذي كره كل شيء فيها». أنظر:

ليلي عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٤.

¹ من أهم الدراسات عن الرحالة الأجانب في مصر في العصر العثماني:

Carré, J.-M., *Voyageurs et écrivains français en Égypte*, Le Caire, 1932, 2 vol.

وأيضاً: Clément, R., *Les Français d'Égypte aux XVII^e et XVIII^e siècles*, Le Caire, 1960. Anis, M., *British Travellers Impressions of Egypt in the late 18th Century*, *Bulletin of the Faculty of Arts*, vol. 15 (p. 9-37).